نسعى لخلق ثقافة مختلفة تقوم على الحرية والتنوع

كامل شياع

ان وزارة الثقافة تسعى الى خلق شروط ومناخات مختلفة في الحياة الثقافية العراقية، واول ما يجب ان نعتمده في هذه الغاية هو اشاعة جو الحرية، والتعامل مع مختلف التصورات الثقافية، واعتماد التنوع الثقافي كبديل للصوت الثقافي الواحد الذي تكرس طوال العهد البائد،ضمن هذا السعي تندفع وزارة الثقافة الى ترسيخ الشروط الفعلية لحركة الابداع، ونشر فضاء الحرية والتنوع .والعمل على استقلالية المثقف وتحريره من النظرة المستقرة في علاقته مع المؤسسة الحكومية، وتأمين دور فاعل له في عملية الانتاج الثقافي بشكل عام.

ان الدرس المؤلم الذي عاناه العراق كانت له سمة اساسية وهي تحويل الثقافة الى وسيط تعبوي تكون فيه المؤسسات والمثقفون عبارة عن اصدارات لسياسات مرسومة سلفا، الا ان التجربة الجديدة تفرض على الوزارة ان تؤشر بوضوح الاتصال بين المثقف والمؤسسة وهذا يعني تقسيم ادوار ،وخلق ارضية تفاعل حر بين المثقف والمؤسسة.

لذا فإننا نتعامل مع مهرجان المربد بوصفه يحمل سمات الثقافة العراقية ،وانعقاد المربد هذا العام لم يكن للوزارة أي دور فيه الا بقدر دعمه ماديا ومعنويا، وكانت المبادرة قد جاءت من ادباء اتحاد البصرة، فرحبنا بالفكرة ودعمناها بقوة، وقد اكتنفت عملية الاعداد للمهرجان عدة عقبات، اهمها الجانب التنظيمي بين اللجنة المنظمة بسعيها الدؤوب ووزارة الثقافة ومحافظة البصرة، الا ان كل هذه العوامل نفسها قد هيأت الظروف لاقامة هذه التظاهرة الابداعية، وخلال مشاركتي في هذا المهرجان استطيع القول ان المهرجان الارضية الحقيقية للشعر ،وهذا هو المضمار الرحب للتعرف على حصيلة النتاج الشعري العراقي.

وهذا ما نعمل عليه ضمن مشروعنا التفعيل دور المؤسسات الثقافية في المحافظات، بهدف انعاش الحياة الثقافية فيها، ربما نحتاج لوقفات طويلة لتلافي ما يحصل من خلل هنا وهناك، والوزارة تدرك منذ البداية ان دورها لا يكتمل دون تفعيل الحياة الثقافية في المحافظات، وكسر مركزية العاصمة بالمعنى الذي يسمح باطلاق الاصوات المبدعة في بيئتها الفعلية، والوزارة يجب ان تكون عادلة في توزيع ثمرات الابداع الفكري العراقي في كل ارجاء العراق وهي تسعى في واقع الحال الى تجاوز روح التعبوية في الثقافة ،بهدف ايصال هذه الثقافة الى ابعد مكان، وفي اعتقادي ان رسالة الوزارة لن تكتمل دون انجاز هذه المهمة الثقافية.

قصة قصيرة

زوجة محارب

مهدي عيسى الصقر

وقف الرجل يتأمل، في شيء من الاستغراب، المشهد الذي تكشف أمامه. بدا له المشهد دخيلاً على معالم ذلك الحي المترف، الذي اختار أن يمارس رياضة المشي فيه ذلك اليوم.ففي فسحة من الأرض، على مقربة من دار جديدة، ما زال العمل يجري في بنائها، رأى تنوراً من الطين، مبنياً على عجل، وامرأة بثياب ريفية قاتمة تلملم حطباً متناثراً، وتضعه فوق كومة من السعف وكرب النخيل والأغصان اليابسة، على مقربة من التنور، وطفلاً يدرج حافياً في الشمس، بين الرمل والحصى والحجارة ومواد البناء الأخرى، المكدسة هنا وهناك. مشى الرجل صوب الامرأة وسألها،

"هل تبيعين خبزاً؟"

رفعت رأسها ونظرت إليه،

"نعم، أبيع خبزاً، لكنني لم أسجر التنور بعد".

قال لها،

"سأنتظر".

فرش منديله فوق مجموعة من الأحجار، وجلس يراقب الطفل يلعب وحده، بين مواد البناء.

"ذاك الصغير هناك.. أهو ابنك؟".

رنت الامرأة إلى الطفل، وقالت نعم، إنه ابنها. بعد ذلك حملت سعفة يابسة من كومة الحطب، ثنت ساقها، وكسرت السعفة، على قماش الثوب، فوق ركبتها، ثم قطعتها، والقت بها في جوف التنور البارد.

"وأين تقيمين؟"

سألها الرجل. قالت،

"هنا!".

حملت الامرأة كرباً، وأعواداً يابسة، وأدخلتها في جوف التنور. وتلفت الرجل ينظر حوله حائراً. سألها،

"هنا أين؟"

أشارت الامرأة بإصبعها إلى البناء. تأمل الرجل بناية الدار الجديدة، التي لم تكتمل. أمامه كان ينتصب، شامخاً فوق وجه الأرض، هيكل كبير من طابقين من السمنت المسلح، نوافذه العريضة لا تزال عارية من الزجاج، وأبوابه فتحات سود مشرعة بوجه الريح. الا أن نوافذ إحدى الحجرات، حيث أشار إصبع المرأة، كانت مغطاة بألواح من الصفيح، ومستطيلات من ورق الكارتون، وأكياس سمنت فارغة، ومزق من القماش المهلهل. قالت المرأة،

"أبي يعمل حارساً لهذا البناء، ونحن نسكن معه".

رآها تحمل علبة صفيح صغيرة، وتسكب قليلاً من سائل شفاف في باطن التنور. لم تكن امرأة كبيرة في السن. لعلها لم تبلغ الثلاثين بعد، وإن بدت هزيلة وشاحبة. قال لها،

'وإذا اكتمل البناء، وجاء صاحب الدار ليقيم فيها!

أشعلت الامرأة عود ثقاب، ورمت به بين الحطب المبلول،ثم نأت بنفسها فحدث ما يشبه انفجاراً صغيراً في جوف التنور، وتصاعد لهب تحيط به سحابة كثيفة من الدخان. قالت،

"إذا اكتمل البناء، وجاء صاحب الدار، عندئذ نبحث لنا عن مالك آخر يريد أن يبني له داراً، أو عمارة جديدة".

أخذ اللهب يتطامن في باطن التنور. بقيت ألسنة صغيرة ممزقة تترقص عند حوافي الفوهة المتفحمة، في حين ازدادت كثافة الدخان المتصاعد. قالت،

"في البداية نبني لنا كوخاً، وعندما يكتمل الهيكل.."

خمدت سحابة الدخان بعد قليل، فنظرت الامرأة إلى الرجل وسألته في شيء من التردد،

"هل بوسعك أن تساعدني؟"

نهض الرجل ومشى وراءها. سمع لغط البنائين يعملون في جوانب أخرى من تلك الدار الواسعة. كانت الحجرة، التي أدخلته الامرأة إليها، معتمة، أرضها لا تزال متربة، وفي أرجائها تتناثر الأشياء كيفما اتفق، قدور وصحون وثياب وأفرشة مطوية، وما شابه من حاجات لا غنى عنها لإدامة الحياة لعائلة فقيرة صغيرة. وفوجئ بوجود رجل آخر معهما داخل الحجرة، كاد في البداية ألا ينتبه لوجوده، لولا حسيس أنفاسه، وبريق عينيه اللتين ومضتا في العتمة. كان الرجل يتمدد ساكناً بين طيات فراش موضوع لصق الجدار في زاوية من الحجرة، عيناه تتابعان حركاتهما، هو والامرأة، باهتمام، وفي شيء من عدم الارتياح، وتلمعان في محجريهما مثل عيني حيوان حبيس. تمتم الرجل محرجاً، متحاشياً النظر إلى العينين اللامعتين في العتمة،

"صباح الخير".

"صباح الخير عمي".

جاءه الصوت واهناً مدحوراً، أراد أن يقول شيئاً آخر للرجل الراقد، الا أن الامرأة وضعت حداً لذلك الموقف المرتبك، وقالت بصوت خال من العواطف، وهي تشير إلى إناء كبير مغطى بقطعة قماش بيضاء،

"هذا هو طست العجين".

وانحنت تمسك بطرف الطست فانحنى هو أيضاً، وأمسك بالطرف الآخر، حملاه معاً وخرجا به من الحجرة، تاركين الرجل ملقى في زاويته المعتمة. كان الطست ثقيلاً. وضعاه على الأرض، وعاد هو يجلس في مكانه فوق

"أبوك يبدو مكدوداً!"

تلفتت الامرأة تبحث عن وليدها. رأته يلعب بالحصى على مسافة قريبة فاطمأنت.

"ليس هذا أبي. هذا زوجي".

قالت ذلك ومضت صوب كومة الحطب، ثم عادت ببعض الأغصان اليابسة، وقطع الخشب الصغيرة، وأدخلتها في التنور.

توهمه كهلاً وهو يراه متدثراً بالأغطية هناك في ركنه القاتم. سألها،

"أهو مريض؟"

تصاعد الدخان كثيفاً مرة أخرى من باطن التنور فجاءت الامرأة بمحراث حركت به النار فبدأت ألسنة من اللهب تلوح متصاعدة من الفوهة المتوهجة، وسط سحابة دخان لم تلبث أن أخذت تخف وتتبدد.

"نعم، هو مريض. قل لي كم رغيفاً من الخبز تريد؟"

ذكر لها العدد فتركته وذهبت صوب البناء، وراح هو يتأمل الصغير يلعب بحبات الحصى، ينقلها من مكان إلى آخر، طفل صغير جميل بعمر سنة أو أكثر قليلاً، شعره الخفيف مثل زغب أشقر يضيء في الشمس.

عادت الامرأة بعد لحظات تحمل في إحدى يديها طاسة مليئة بالماء، وبالأخرى صينية مستديرة واسعة فرشت بطبقة من الطحين. وضعت الطاسة والصينية بجوار طست العجين.

"وهل هو مريض منذ مدة؟ أقصد زوجك."

"نعم، منذ مدة."

ابتعد الصغير عن كومة الحصى وجاء يمشي متعثراً، واضافت هي في شرود،

"بقي هناك ست سنوات!"

لمح الطفل رغيفاً محترقاً مهملاً فوق الأحجار فمضى إليه، كسر له قطعة صغيرة من الرغيف ودسها في فمه، وراح يأكل وينظر إلى وجه أمه. رنت إليه الأم ساهمة، ثم قرفصت على الأرض وكشفت عن الطست. مدت الامرأة يدها في طاسة الماء، ثم أخذت تقتطع بأصابعها مقادير صغيرة من العجين، وتكورها بين راحتيها، وتضعها فوق فرشة الطحين، في الصينية، الواحدة بجوار الأخرى. قالت،

"قبل سنتين تقريباً أعادوه إلينا، عندما بادلوا الجرحى من اسرى الطرفين".

شبع الطفل من الأكل فعاف بقايا الرغيف المحترق. تأمله الرجل وهو يدرج مبتعداً. رآه يقف عند كومة من الأحجار، وينحني ليحمل حجراً من على الأرض. وقالت المرأة،

"كان به عرج خفيف، عندما أعادوه إلينا، فحمدنا الله على نجاته".

ظلت الامرأة تواصل عملها في تكوير العجين، ووضعه في الصينية، وهي تتكلم بهدوء، وبنبرة محايدة، بلا غضب وبلا ضغينة، مثلما يتكلم إنسان عن كارثة من صنع الطبيعة.

"ولكن قبل أشهر ظهرت قرحة صغيرة في مكان الجرح القديم، أخذت تتسع بمرور الأيام وتأكل في اللحم الحي حتى وصلت إلى العظم، وما عاد يستطيع النوم من الوجع!"

توقفت الامرأة عن الكلام، ورنت إلى يديها اللتين كانتا تواصلان عملهما، في حركات سريعة متقنة، بمعزل عما يشغل ذهنها في تلك الساعة. ثم رفعت رأسها ونظرت إليه،

"والآن يقولون لي لابد من بتر الساق!"

صرخ الطفل متوجعاً، إذ أنه أسقط الحجر على قدمه فجزعت الامرأة. تركت عملها وهرعت إليه حملته بين ذراعيها. هدهدته حتى هدأ. وضعته بعد ذلك على الأرض فراح يتأرجح في مشيته، والدموع تخضل وجهه المستدير الصغير.

"قلت كم رغيفاً تريد؟"

ذكر لها العدد مرة أخرى.

غسلت الامرأة يديها في طاسة الماء، ثم نهضت وذهبت صوب التنور. تمتم الرجل في شرود،

"ابنك الصغير هذا سوف يكبر بعد سنين، ويغدو بطلاً، هو أيضاً، يدافع عن وطنه، مثل أبيه تماماً!"

تقلبت ملامح الامرأة في الحال، ونظرت إليه بإمعان لحظة طويلة، كأنها تحاول أن تعرف أي نوع من الناس هو. كانت عيناها قاسيتين يلتمع فيهما بريق غضب مريع. لم يندهش الرجل شعر بالارتياح، إذ اكتشف أن هدوءها، الذي حيره في البداية، كان في الحقيقة هدوءاً ظاهرياً. حاول أن يبتسم لها معتذراً عن كلماته الفظة، إلا إنها أشاحت بوجهها عنه. رآها تبسط كفيها، فوق فوهة التنور، تتحسس بهما حرارة الجمر المشتعل في القاع. لم تعجبها الحرارة، وجدتها غير كافية، فذهبت لتأتي بمزيد من الحطب توجج به النيران المحتدمة في جوف التنور.

بغداد-

سعدي يوسف من خلال الترجمة

خالد المعالي

ترجمة الشعر إلى اللغة الأم تبدو عملية سهلة اذا ما قارناها بترجمة الشعر من اللغة الأم. ففي الأولى على المترجم أن يكون قد فهم بطريقة ما القصيدة التي يترجمها، ذلك أن لكل قصيدة قراءات متعددة عدد القراء، لكي يحاول إعادة كتابتها بلغته الأم. اللغة العربية بالنسبة لي، وهي لغة لها مشاكلها الكثيرة اليوم وقاموسها يعتبر مترهلاً وعملية تجديده وإعادة إصداره تتمان ببطء شديدين، وبهذا تحظى الترجمات اليها من الناحية الشعرية بحظ قليل من النجاح! لكن المترجم مثلي والذي يقوم بنقل القصيدة العربية الى لغة أخرى، الألمانية مثلاً، يكون عمله أصعب، فهو يقوم بنقل المعاني حسب قراءته، الى اللغة الأخرى، لكي يتعاون فيما بعد مع بناء لغوي آخر في إعادة الكتابة، وهنا يحار المترجم إزاء غالبية الشعر العربي المكتوب اليوم، فهو شعر نجح في غالبيته بتجاهل الواقع تماماً، وبالتالي يصعب على المترجم وسط المعاني المتعددة، الظاهر منها والمخبوء في بطن الشاعر، الوصول الى جوانية القصيدة، هذا اذا كان ثمة جوانية أصلاً، ولا أسهل بالنسبة لي من إيراد نماذج من ترجمات لقصائد من شعراء عرب معاصرين ومشهورين جداً صدرت قصائدهم حاملة تواقيع كبار المترجمين، لكي نرى من خلالها الاستسهال في إيجاد تعابير عمومية وسطحية أحياناً لكي تبدو الترجمة مقبولة وماشية، ولنعترف بهذا، بأن هؤلاء المترجمين لم يجانبوا الحق في هذا الخيار لما عرف به هذا الشعر من المجانية التي لكأنما أصبحت ميزة أساسية من ميزات الشعر العربي اليوم، ولأن الشاعر العربي على العموم أصلاً لا يعرف ما يريد قوله.

فاللغة التي نترجم اليها، سواء كانت، ألمانية، فرنسية أو انكليزية، لغة تريد أن يكون المعنى واضحاً داخل النص، مهما كان النص غامضاً أو سوريالياً كما يحلو للبعض وصفه، والكلمات مهما رميت في القصيدة بشكل عشوائي، الا انها مبنية بدقة ومحكمة الدرس! لأنها تتشكل داخل اطار لغوي حي! نقول هذا بمناسبة محاولتنا منذ سنوات خلت ترجمة قصائد لسعدي يوسف الى اللغة الألمانية. يبحث القارئ المختص لدى الناشر الغربي عادة، سواء كانت عملية النشر هذه في مجلة أو جريدة أو في مستقل، يبحث القارئ هذا عن المعطى الذي تجلبه له هذه القصائد، المقترحة، الاسلوب الذي تصاغ به، الصور التي يمكنها أن تقرب له المعنى وتدعه يشم الرائحة ويستذوق معنا الإحساس بالمكان وبالزمن. ثمة شعراء عرب قليلون نشعر بالسعادة ونحن نترجمهم الى اللغة الأخرى، وسعدي يوسف واحد منهم، من أبرزهم...

لقد تحدثت قبل قليل عن المجانية في الشعر العربي الحديث اليوم، وعن اللغة، لغة الشاعر العربي والتي هي أداته في التعامل مع الواقع! هذه اللغة وكأنها أضحت اليوم بعيدة عن متناوله وما نجده عنده ما هو الاشيء يوهم بها، ويعطينا واقعاً مجرداً متخيلاً وكأنه لا علاقة له بالمعاش اليومي، لا علاقة له بالشخصي والتاريخي، مجرد اعادة استهلاك للمطروء! فهو يكتفي بالأشكال الطنانة والفارغة، وبجمال لفظي، فتبدو القصيدة أحياناً مجرد شعار أو مجرد سوء فهم! لهذا لا يحظى المضمون لديه بالاهتمام. ووسط أجواء لا شعرية كهذه استطاع سعدي يوسف ان يشق طريقه وأن يجد طريقته.

فهو شاعر أشياء بسيطة، كلما سهلت لغته زاد غورها عمقاً... وتشبث بالاقتناع... فالقصيدة لديه ممارسة حياتية وليست مجرد فيض لغوي، وهي قصيدة غنية ومتعددة أي باختصار قصيدة حية، وهذا يجعلها حاضرة في بيئتها وممكنة الحضور في اللغات الأخرى. القصيدة لديه تتواصل مع ذاتها ومع الآخر.

ثمة قصائد حين نترجمها الى اللغة الأخرى تبدو لنا مثل الزينة الباهتة. لكن قصيدة سعدي يوسف يمكن تجدها مخبوءة في ذاكرة قارئ عراقي في قرية قرب نقرة السلمان لأكثر من ربع قرن، أو تجدها في ترجمتها الاسبانية قصيدة حية يرددها جمهور كولومبي في امريكا اللاتينية، سواء كانت هذه القصيدة هي: الهارب الليلي، الخيط، ميت في "بلد السلامة"، وحدة، عبور الوادي الكبير، حجر، القنفذ، حالة على البحر المتوسط، سقوط فندق النهرين، أو أمريكا... أمريكا.

يقال بأن عالمية الكاتب تنبع من محليته الشديدة... ويجب أن نضيف اليها تجنباً لسوء الفهم الشائع الذي لا يفرق بين التأثر والاستنساخ، بأنها يجب أن لا تكون مجرد كرلحيات المسبحة.

سعدي يوسف شاعر يتعامل مع الأشياء... يراها بوضوح وهو شاعر محلي بامتياز.

بغداد في //

شياه جرباء وقطعان مقدسة لعبة الصمت في الثقافة العراقية

سرمد الطائي

أين سياقات النقد في ثقافتنا؟

منذ // وحديثنا عن الطاغية صدام لا يكاد يتوقف. ليس في وسعك ان تعثر على مطبوع او صحيفة او خطاب يجري اطلاقه في عراق اليوم دون ان تجد فيه حديثاً عن جرائم صدام ومثالبه.

لكن عاماً بأكمله يبدو كافياً لإشباع رغبتنا في الصراخ، اطلاق ذلك العويل المختنق، اوجاعنا الخرساء المشروعة. ولا بد ان نحدد الآن نقطة يكف عندها العويل، فنستبعد اللغة الشعرية قليلاً في التعامل مع هذا الكابوس، لنحاكمه بمنطق أكثر صرامة ونتنبه في الاقل الى ان من الممكن جداً ان يتسلل هذا الكابوس ثانية الى احلامنا ويتحول الى قدر جديد يرتهن تطلعات المرء الى غد مغاير.

ترى هل مارسنا فعلاً نقدياً حيال كابوس الطاغية يتيح لنا فهم ما جرى بالضبط؟

هل نرى سياقاً نقدياً يتخطى لغة الحديث عن المثالب والهنات وممارسة هجاء يكون بدائياً احياناً؟

ام اننا وحسب نعتمد خيار الحجاج الجدلي و((المعارضة على سبيل الممانعة))، لبلورة موقف رفض يكون عادياً للغاية برغم صوت الحجاج الهادر؟

هل حاولنا ان نتجاوز حشداً من المجازات توغلت كثيراً في موقفنا الاحتجاجي وفخخته بحشد من المفارقات الساخرة؟

دعونا نتكلم بشيء من القسوة حول ما ينتجه خطاب الثقافة العراقية اليوم في هذا الإطار.

صمت وصمت

لنتحدث عن واحد من ملامح المفارقات تلك.

تتعامل الثقافة العراقية مع كابوس الاستبداد بوصفه فعلاً و منتجاً للطاغية، والطاغية شكل من أشكال ((الآخر)) الذي مارس اضطهاداً للأنا، الأنا البريئة، الضحية، والأهم من ذلك ان الأنا هذه تمتلك بديل الخير والعدل. هل تحسسنا في هذه الموضوعية بين حقلي الأنا والآخر، لوناً من المجاز؟ الا يمثل هذا الآخر وجهاً من وجوه الأنا حقاً؟

الا نجد ان من المعقول جداً ان نستبدل هذا الآخر ونأتي بالأنا لنحاكمها بدلاً عنه، او ان نجلسهما معاً على كرسي الإدانة ونفضح الفوارق المجازية بينهما لننتقل من لغة التوجع الاحتجاجي الى منطق الفضح الصريح؟

أليست الأنا بحاجة الى تعرية، برغم كل ما في هذا من نزق ربما؟

لقد تأسس كابوس الطغيان او الاستبداد على ثقافة طغيان او ثقافة استبداد، أي انه اعتاش على حشد من المقولات التي جرى توظيفها بشكل محدد، وربما زال الكابوس او السلطة التي مارست توظيفها، ولكن ماذا بشأن المقولات التي ألهمت الاستبداد وبلورت ثقافته وشرعنت وجوده؟

هل تخشى الأنا حقاً ان تقترب من مساحة التساؤل هذه؟

يدرك كثيرون في ظل حس غريزي محدد، ان طرح هذا اللون من الاسئلة سيكشف عن مجازية مهولة تأسس عليها موقف الاحتجاج والرفض، لأن المقولات التي قدستها ثقافة الاستبداد ليست سوى قناعات قطيعنا الكبير المقدس، وليس تبرؤ القطيع منها سوى تنصل مجازي.

أليس القطيع منشغل اليوم بإعادة نتاج اخطاء الماضي وكوابيسه وإظهارها بحلة جديدة وغلاف ايديولوجي يبدو بريئاً؟

هل انشغلنا في ((المرحلة الانتقالية)) بأمر آخر سوى تحنيط جثة الكابوس لتقديمها بوصفها بديل الخير والعطاء والرحمة؟

هل أخفقت محاولاتنا التغييرية السابقة لسبب آخر سوى هذا؟

ما الذي يمكن للثقافة ان تفعله في التعامل مع كل هذا التعقيد الذي يكتنف ظاهرة الاستبداد؟

هل سنتهور يوماً ونخرج على تقاليد قطعاننا المقدسة لنقول لها: انك جزء من الكابوس؟

مهلاً... هل نحن مصابون برهاب الأسئلة حتى الآن؟

لقد كان الصمت خيارنا منذ زمن طويل، نقول اننا كنا مرغمين على الصمت في زمن النظام البائد وعصر نظمة الاستبداد، فهل سنظل صامتين الى الأبد؟

ما الفرق بين صمت وآخر؟

هل يمكن للصمت ان يزعم بأنه ثقافة؟

هل نحن مثقفون حقاً، ام اننا حرفيون نمارس صناعة القول وفن البيان، كما يصنع آخرون الورق والحبر، ويتولى سواهم تجليد ما ننجز من كتب وطباعة الصحف التي ننشر فيها؟

يتحدث كثيرون اليوم عن الغزاة والمحتلين، وتمنيت ان تطرح الثقافة العراقية تساؤلاً جاداً حول هذا الموضوع.

ماهو الاحتلال؟

أليس في وسعنا ان نستعيد تاريخ العراق بوصفه تاريخ احتلالات؟

هل كنا خارج نفوذ الاحتلال لكي ندخله، ام اننا ننتقل من اطار هيمنة الى اطار هيمنة آخر؟

أليس في وسعنا ان نزيح ستار المجاز الكثيف عن مفهوم الاحتلال، لنحفر في مرجعيات الهيمنة التي تشكله ونصبح قادرين على طرح اسئلة تمارس الكشف والفضح لمفارقات الاسئلة؟

هل سنظل نردد اسئلة زائفة خوفاً من فضح مشاكلنا المستعصية... خوفاً من التوغل اكثر داخل دهاليز الذات وأخاديدها؟

يبدو ان الصمت سيظل في المدى المنظور، اللعبة المفضلة في الثقافة العراقية، كما هو كذلك في الثقافات المجاورة والموازية، وهو صمت يستهدف بالدرجة الأولى الحفاظ على مشروعيتنا داخل القطيع. ليس من المهم حينئذ ان يكون القطيع هذا حزب البعث او النظام السياسي او نسيج قيم المجتمع، بل المهم ان نتشبث بمواقعنا داخل أنسجة الانتماء الدافئة!

سنظل نقيم انشطتنا الثقافية داخل اطار الانتماء نفسه برعاية شيخ القبيلة او زعيم الطائفة او محافظ المدينة، نستمرء المكرمات والهبات، وفق منطق تأويلي يحاول ان يكون جديداً، مع وحدة دائرة التأويل وموضوعه.

هل لدينا خيار سوى ذلك؟

هل يحسن بنا حقاً، ان ننقب ((الحقائق الكونكريتية)) الزائفة لنستخرج محتواها المجازي ونتولى فضح مفارقاته؟

ألن يؤدي بنا ذلك الى سخط قطعاننا المقدسة؟

شط العرب: بوح أبدي

يتحول المثقف احياناً الى متمرد يخرج على الحس المشترك للقطيع، ولكن هل سيكون مستعداً لأن يطرد، او يتحول الى شاة جرباء مقصاة ومعزولة في حجر صحي او سياسي او عقائدي؟

كيف للجرب هذا ان يتحول الى ظاهرة مشروعة؟

كيف لغرف الحجر هذه ان تصبح فضاءً ابداعياً؟

هل نحن خارج غرف الحجر تلك حقاً؟

الا يتحسس المثقف آثار الجرب على جسده؟

هل يخشى هو ان يدرك هذه الحقيقة، ان انه أجرب حقاً، وأن يطالب

(طلبت من الصديق الباحث البحريني علي الديري يوماً، ان يعرفني بنفسه فقال، انا جمل أجرب. منذ ذلك الحين وهذه الدلالة المكثفة تستهويني وتدفعني الى استلال جذورها الدلالية والتلاعب بتداعيات المفارقة فيها).

يستبعد المثقف العراقي كل هذه الهواجس الخطيرة، ويأخذ في الانخراط مرة اخرى داخل القطيع، يعيد تأهيل نفسه لكي يكون منتمياً، انظروا، حشود من المثقفين تتحدث لا زالت عن ((هويات ثابتة))!

من المؤسف اننا نجد مثقفين يتحدثون عن مفهوم لتحول الهوية، لا ينطوي الا على السكون ذاته، حين يفترضون ان ثمة ثوابت في الهوية تظل مقدسة لا يطالها تغيير ولا بد للتحولات ان تجري في اطارها. لكن هذا تلاعب بالثبات والتغير يقيل الإرادة الانسانية، ومن المثير ان هنالك إنساناً حراً دائماً، يصوغ قناعاته بمنطق الاستعارة والمجاز، لكن قطيعه البشري ينسى بعد برهة أسلوب الاستعارة هذا ويتعامل مع المقولات المجازية تعامله مع الحقائق.

أدرك نيتشه قبل وقت طويل ان المجاز حين يستعمل كثيراً وتنتهي صلاحيته، يتحول الى حقيقة، انها الأوهام التي نسي الناس انها أوهام. وهكذا بالضبط تنتكس مشاريع التغيير الكبرى بمجرد تحول مقولاتها الى حقائق وانحسار طابعها الاستعاري او السردي. يظهر الصنم مرة أخرى فيعود أبو جهل يقدم القرابين لهبل جديد.

يبدو ان من اعتاد على ان يكون عبداً لن يتمكن من استيعاب الحرية. فالعقل ذاته يبدأ منادياً بحرية العقل، لكنه يصنع أصناماً ويختلق آلهة ثم ينسى او يحلو له ان ينسى انها مخلوقاته، فيأخذ في تقديسها ويلغي حريته حين تتعارض معها.

يتواصل انذكاك المثقف داخل اطار الانتماء، يصوغ احلامه وفق منطق الانتماء الخاص هذا. لم يكن الانسان البدائي يتصور ان ثمة طريقة لتنظيم شؤون القطيع البشري الا مع ((رعاة)) أشداء يخشاهم الآخرون. وبرغم شتى التحولات التي شهدها تاريخ الانسان، إلا انه لا يزال يجمح بخياله الى حقبة الرعاة البدائيين، ويحن الى أسلافه الاشداء مفتولي العضلات، ثم يستعير تلك الملامح ليرسم من خلالها مفهوماً لفحولة سياسية او دينية او اجتماعية او ثقافية أيضاً.

تخيل كم منا اليوم يستعير نموذج عنترة بطل بني عبس، ويجري عليه تعديلات مناسبة لخلق بطله الجديد. يلبس عنترة قلنسوة الكاهن مرة، وينتعل حذاء الكولونيل او العقيد الثقيل، او يجلس بين كومة كتب ويلبس ربطة عنق ويمارس التنظير، انه احياناً يظهر في ضمائرنا على شكل ثائر او... هكذا يأخذنا خيال عنترة بعيداً لنبحث عن عنترة الكاهن او المثقف او السياسي او العسكري. حين يثير ((البطل)) إعجابنا فإن هنالك نموذجاً لنبوخذ نصر او الإسكندر او عمرو بن معدي كرب، يثوي في اللاوعي، وهو جاهز لتزويدنا بشتى مواصفات البطولة التي تتحول الى معيار فاعل يرسم عبودية القطيع البشري للأبطال. هل يمكن لبني عبس ان يتغلبوا على هوازن وثقيف، دون سيف عنترة السحري؟

لقد انتمى قطاع واسع من المثقفين الى عقيدة القطيع هذه، بعضهم يبحث عن عنترة المثقف، او الكاريزما الثقافي، يريد صناعته او اختراعه ان لم يعثر عليه، وبعضهم يحلم بتقمص دور عنترة، بات طموح الابداع رغبة في دور كاريزمي كذلك، ولن يكون الكاريزما هذا سوى معبر أمين عن ضمير قطيعه بالطبع... كم منا لا يزال يؤمن اليوم بأن دور المثقف هو التعبير عن ضمير الأمة وقيم القطيع وأن يذود عن مضارب القبيلة؟ هل تبقى للثقافة العراقية اذن، هامش لصناعة اسئلة اكثر اتقاناً، او خيار لممارسة الفضح وخرق ما تمارسه المجازات المهولة من تهويم يتلاعب بجدلنا الثقافي؟

صورة قاتمة ولا شك، رسمتها وأنا أنصت الى إيقاع الريح في مدينتي، صخب شط العرب الأبدي، أمواجه المتبرمة، رغبتها العارمة في البوح، نبرتها الصريحة التي مارست غوايتنا يوم كنا نشاكس الأسماك على ساحله بين زوارق الصيد القديمة... كنت يومها أتعجب حين أرى النوارس تلاحق عتمة الغروب، بيد انني ادركت هذه المرة انها تتوغل في الظلام بحثاً عن فجر أبيض، أليست أحلك الساعات هي تلك التي تسبق الفجر؟ ربما بات ((مربدنا)) هذا واحدة من بدايات ذلك الفجر... لأتمهل، ربما كان هذا صخب البدايات.

البصرة- مهرجان المربد